صراع بين نسقي الاستلاب والتحرر.

بسمة عامر عبد الوهاب

إنَّ التعبير الفني ما هو إلا صورة جمالية لواقع أكثر وحشية وقسوة أحيانًا ، لذلك فليس بالضرورة أن يَنْقُل الفن جماليات الكون فقط ، وإنَّما يساعد الفن على إنقاذ الواقع من غفلته أو نزعته العدوانية ، وكان الواقع الفلسطيني أكثر مرارة ووحشية ، فقد عبرت عنه نصوص الشاعر محمود درويش[1] تعبيرًا صارخًا ، طالبةً بتغيير حيثيات هذا الواقع المرير، وعارضةً لتفاصيل الصراع القائم ، في صورة شعرية مزخرفة بالجماليات ومحملة بأنساق ، تدعو المناضل الفلسطيني بمواجهة هذا الاستلاب الغاشم المغتصب للأرض والوطن.

ولكن هل فَهِمَ درويش العلاقة التي تربط الإنسان بالأرض والوطن المتحول ؟ منذ بدء لحظة الاحتلال الصهيوني[2] لفلسطين ، هل عبر من خلال شعره عن قيمة الأرض

([1])محمود سليم حسين درويش شاعر فلسطيني ولد في الثالث عشر من شهر مارس عام 1941م في قرية
البروة عكا فلسطين ، نزح هو وعائلته عام 1948م إلى جنوب لبنان ، تلقى تعليمه الثانوي في كفر
ياسين ثم عمل في الصحافة الشيوعية ، والتحق بالحزب الشيوعي راكاح وهو أحد أجنحة الحزب
الشيوعي الإسرائيلي ، وأشرف على تحرير مجلة الجديد ،و تحرير مجلة الكرمل.ظل متنقلًا بين البلاد
حتى وافته المنية في الولايات المتحدة الأمريكية عام 2008م. وله العديد من المواقف الوطنية والمشاركات الأدبية والشعرية . يراجع: معجم الشعراء منذ عصر النهضة الجزء الثالث ،إميل بديع
يعقوب ،دار صادر بيروت .ص 1212،و معجم الشعراء من العصر الجاهلي حتى سنة 2005م الجزء
الخامس محمد رضا بن قاسم بن محمد ، منشورات محمد علي بيضون دار الكتب العلمية بيروت
ص329.موسوعة شعراء العرب يحيى شامي ، الجزء الثالث دار الفكر العربي بيروت 1999م.

([2]) تعريف شامل يطلق على الحركة القومية اليهودية (الصهيونية) تعريف يشوبه كثير من الخلل ،لأننا

وأن قيمة الإنسان مرهونة بمكانه ، ووطنه ؟، وأنه إذا ضاع مكانه ضاع معه وجوده ، وتزعزت قدرته على مواجهة العالم الخارجي ،فأنى له النظر في الكون وهو شريد بلا عنوان ، فقد عبر درويش عن ذلك[3]:

ما قيمة الإنسان

بلا وطن

بلا علم

ودونما عنوان

ما قيمة الإنسان.

يشير النص إلى تمجيد الوطن والتمسك به ، ليبقى الإنسان الفلسطيني موجودًا في ساحة هذا الكون القاسي الذي لا يعترف بالمستلَبين ، فالشاعر يحدد مقاومات البقاء ويحصرها في (وطن ، وعلم / هوِّيَة، وعنوان/ مكان.) فيجمع بين الوطن والمكان ، ويُعَرف بهما هُوِّية الإنسان الفلسطيني الحر ، فلا وجود دون وطن ولا وطن دون مكان ، وحيز جغرافي يُنْصب عليه علم هذا الوطن.

إن تمجيد الوطن الواضح في النص السابق قد خلق تصارعًا بين نسقي الاستلاب والتحرر ، فالاستلاب الصهيوني للوطن الفلسطيني حرك داخلهم رغبةً قوية في مقاومة ثقافية وفنية ، هذا ما عبرت عنه نصوص درويش في مرحلة أوراق الزيتون ،

لسنا أمام صهيونية واحدة، ولا هي حركة قومية ،لأنها ببساطة تفتقر إلى أدنى مقومات التكوينات ا
لقومية وهو وحدة العرق ، لقد ظهرت صهيونيات عديدة في التاريخ اليهودي الحديث نتيجة لمؤثرات
خارجية في أغلبها ،وداخلية في قليل منها، ولكن البقاء كان للصهيونية الاستيطانية الإحلالية، التي
فرضت مفاهيمها على باقي الصهيونيات الأخرى. ينظر :اغتراب الشخصية اليهودية في الأدب
العبري الحديث.أحمد حماد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب 2012م، ص 19.

([3]) ديوان محمود درويش. أوراق الزيتون ،المجلد الأول طبعة دار العودة بيروت لبنان ط الرابعة عشر
1996م،الديوان 1964م،ص39.

فجاءت النصوص ناطقةً بالتحرر والمقاومة لفكرة الاستلاب ورافضةً للوضع القائم .يقول درويش[4]:

لَملَمتُ جرحك يا أبي

برمومش أشعاري

فبكت عيون الناس

من حزني ومن ناري

وغمست خبزي في التراب

وما التمست شهامة الجار !

وزرعت أزهاري

في تربة صمَّاء عارية

بلا غيم ... وأمطارِ .

يعلو صوت التحرر في مقابل قسوة الاستلاب ورغبته في إخماد نار المقاومة ، وسلب نهارها ، فالحزن الناتج عن ألم السَلَبْ لم يُسكت قوة الشعر في مقاومته ولم يزعزع الصمود والعزيمة عنده ، فالجرح سَكنته الأشعار المعلنة لنسق التحرر الواضح في ثنايا النص حيث جملة (زرعت ، غمست) وما تشيران إليه من صمود وتحدي للاستلاب ولتخلي الجيران عن القضية ، فالإنسان الفلسطيني يشعر بالوحدة في مقاومته وطلبه للتحرر فهو عار في مهب الريح ، يقاوم دونما أدوات ، ربما كان هذا مقصودًا من القوة المستلَبة حيث ضيقت عليه وسلَبت منه كل مقاومات الصمود رغم ذلك لم يتراجع ولم يتقهقر للوراء . يقول درويش في ذلك[5]:

لو كان لي برجٌ

([4]) ديوان أوراق الزيتون، ص 16.

([5]) ديوان محمود درويش ، عاشق من فلسطين ، المجموعة الأولى ، دار العودة ،بيروت ،ص 78.

حبست البرق في جيبي

وأطفأت السحاب

لو كان لي في البحر أشرعةٌ،

أخذت الموج والإعصار في كفّي

ونوَّمت العبابْ

لو كان عندي سلَّمُ،

لغرستُ فوق الشمس رايتي التي

اهترأت على الأرض الخراب...

إنَّ مقاومة الاستلاب تحتاج إلى سواعد تنهض بالتحرر في مقابل الَسلَب، فهو يتمنى لو أنه يملك هذه المقاومات الظاهرة في النص من بحر وسحاب وسلم ، ليستطيع التخلص من هذا الاستلاب ، وإنّما تعبر في البنية العميقة للنص على تخاذل العرب في نصرة فلسطين وإمداد الفلسطيني بالقوة الدافعة والمحركة لنسق التحرر في مقابل الحد من الاستلاب ، ولكن على الرغم من ذلك لا يتوقف عن الصمود والمقاومة ، يقول درويش[6]:

لكنَّ صوتي صاح يومًا

لا أهاب

فلتجلدوه إذا استطعتم

واركضوا خلف الصدى

مادام يهتف لا أهابْ!

إنْ قَصَفت عاصفة

(6) ديوان ، عاشق من فلسطين ،ص 88-92

في تشرين ..

ثالثهم..

فجذور التين

راسخة في الصخر ..وفي الطين

وغصون..

يشير النص إلى إلتزم درويش شعريًا بالتعبير عن الصراع القائم بين نسقي الاستلاب والتحرر، ويوضح كيف أنه قد التزم سياسيًا أيضًا بإنارة الطريق أمام المُقاوِم الفلسطيني ،وذلك من خلال أشعاره ــ ديوان أوراق الزيتون , وعاشق من فلسطين ــ ومقالته السياسية النارية وخطابه الحماسي ،وبث روح الدفاع عن الوطن أولاً "فجذور التين" متأصلة وثابتة لا يحركها زعزعة الاحتلال ،ولا يستطيع الاستلاب أن يمحوها ، فهو يتحدى الزوال من خلال استخدامه للجملة النسقية المعبرة عن الثبات والرسوخ (راسخة في الصخر) التي لا تدل على الثبات فقط ، وإنما يرمز بها إلى البقاء والخلود ، ويستحضر رمزية "الطين" أيضًا لتدل على التجدد والاستمرار في عملية الخلق .فمهما حاول الاستلاب خلع الجذور فإنَّ الطين الرامز للتحرر والتجديد والمقاومة بمقدوره أن يُخْرِج غصونًا جديدة وأصيلة ستقاوم أيضًا ؛لأنَّها ستحمل الصفات الدفاعية ضد الاستلاب كنسق وفكرة. يقول درويش في ذلك[7]:

سنصنع من مشانقًا

ومن صلبان حاضرنا وماضينا

سلالم للغد الموعود

ثم نصيح: يا رضوان !

إفتح بابك الموصود !

([7]) ديوان ، عاشق من فلسطين ،ص 143–144.

سنطلقُ من حناجرنا

ومن شكوى مراثينا

قصائد ، كالنبيذ الحلو

تكرع في ملاهينا

وتنشد في الشوارع

في المصانع

فلا نقشع

سوى الفجر

ولانسمع

سوى النصر

فكل تمرد في الأرض

تُقَبَّلنا.

يتقدم نسق التحرر على نسق الاستلاب في النص ، ويعلو لدرجة أنه سَيُحول كل هزيمة إلى نصر وينسج من كل مشنقة يراد بها إخفاء صوت الحرية درعًا يُقَاوَم به ويُصَارَع عدوه"لقد أدرك شعراء المقاومة إدراكًا عفويًا أو قصديًا أنَّ تعبيرهم عن حالة الشعب ،حالة جماعية ، فإن الالتزام بالبعد الجماعي ظاهرة أعطت الخصوصية والتفرد للأدب الفلسطيني ، حيث يبرز البطل الجماعي الثوري"[8] فاستخدام درويش لضمير الجماعة في جملة(نسمع، سنصنع، سنطلق) تدّل على تفضيله الجماعية في المقاومة ، وعلى علو لصوت الأمة / الشعب الفلسطيني على أنا درويش ليبرهن بذلك على دوره

([8])أثر الفكر اليساري في الشعر الفلسطيني شعر: محمود درويش ــ سميح القاسم ــ توفيق زيَّاد، رقية
زيدان ، ص 152.

الشعري المتمثل في إيقاظ روح التحرر والانتصار على الاستلاب والصمود أمامه."لقد اتسم شعر محمود درويش بمميزات كانت وليدة تلك المعاناة التي عاشها إذ كان يهدف إلى تحرير الإنسان والأرض ، وكان استجابة لمتطلبات نضالية ملحة تحدد هوية الشاعر"[9] وتمنح الإنسان الفلسطيني القوة الدافعة لتحقيق النصر، وإثبات الهوية الفلسطينية، فالتعرف على القضية والإيمان بها كان الدور الذي قام به درويش منذ البدء فوضع على عاتقه مهمة الإبلاغ والمقاومة ، وصنع النصر .في هذا المعنى يقول درويش"[10]:

نعرف القصة من أولها

وصلاح الدين في سوق الشعارات

وخالده

بيع في النادي المسائي

بخلخال امرأة!

والذي يعرف يشقى.

إنَّ ثورة النصر التي أشعلها وصدرها للمتلقي عبر شعره ، كان بمقدورها أن تذيب صلابة وعناد المستلِب ، وتحقق النصر والتحرر، لأنه استطاع أن يرثي قواعد الوطن عبر النص فيقدم وثيقة تاريخية شَهِد لها العالم أجمع فمن لا يعرف قصة صلاح الدين الأيوبي وكفاحه ضد الصليبين ، وتحريره للقدس ، فهذا النص بمثابة السند والحجة التاريخية بعروبة فلسطين ، وإن كان النص يحمل بداخله فضحًا لقصة تآمر شريف مكة مع بريطانيا ومنحه فلسطين هدية للشعب اليهودي المشرد ،فهو يعرف لذلك فهو شَقْي ، ولكن مع ذلك يريد درويش أنْ يتغير الواقع ويتبدل من سلب وقهر إلى واقع أكثر عدالة ،

([9]) تجليات الهوية في شعر محمود درويش قصيدة بطاقة هوية "أنموذجًا" بوشي عربية وصعدلي خديجة

إشراف بهلول شعبان ، الجمهورية الجزائرية، جامعة مولاى الطاهر ، قسم اللغة العربية 2016م.

([10]) ديوان محمود درويش ، العصافير تموت في الجليل، دار العودة ، بيروت لبنان ،ص 242.

ولا يأتي هذا الواقع العادل إلا ببروز لنسق التحرر وصراعه مع نسق الاستلاب ، واعتراف العالم بحق فلسطين في استرداد نفسها. يقول درويش"[11]":

لنقل مع الأجداد : خير!

هذا مخاض الأرض : خير!

تضع الوليد غدًا ..ربيعًا أخضرًا!

كعيون سائحة أطلَّت ذات فجر!

لا الأم أمي

لا الوليد أخي ، ولا

ذات العيون الخضر لي

وأقول خير.

إنَّ المرحلة النضالية الأولى من شعر درويش قد رفض فيها اليأس ، لم يسمح للهزيمة أنْ تتسرب إلى ذاته ، ربما لكونه مازال على ثوريته ، ولم يكن الاستلاب قد تمكن من نفسه ، فالنص يشير إلى تحدي العوائق التي بدورها تحول بينه وبين تحقيق انتصاره لنسق التحرر الكامن في نصوصه الأولى ، حيث التمسك بالنسق العربي القديم في خيرية الأشياء ، وهذا دور المثقف المبدع أنْ يُسرب عبر خطابه الأمل وعدم التراجع ليدفع بشعبه نحو الأمام" إنَّ اختيار العمل الثوري هو أفضل الحلول البديلة لمشكلة الاغتراب ، ليس كشأن فردي فحسب ، بل كشأن مجتمعي لهذا يقتضي أنْ يتصف العمل الثوري بالشجاعة والتحرر والمسؤولية والإبداع ، وبخاصة التحرر من العجز والتفكك الاجتماعي والثقافي"[12] فهذا التفكك الاجتماعي لا يمكن أن يحدث مادام الأديب المثقف يقوم بدوره كناشط سياسي ومحرك ثقافي يحدد نوعية المقاومة التي تتناسب وطبيعة مجتمعه. لذلك

([11]) ديوان عاشق من فلسطين، ص 110.

([12]) الاغتراب في الثقافة العربية متاهات الإنسان بين الحلم والواقع، حليم بركات، مركز دراسات الوحدة
العربية بيروت 2006م ص 84.

فقد استطاع محمود درويش في المرحلة الأولى من شعره خلق هذا الصراع الحاد بين نسقي التحرر والاستلاب ، وتَمْثل ذلك في مقاومة شعرية ، صورت رفضه الاستلاب، فجاءت هذه المقاومة مرتفعة تارة ، ويعتريها اليأس وقد تختفي في ثنايا حديثه عن القضية تارة أخرى .حيث يقول[13]:

إنْ لم تكن كسيوف النار...قافيتي!
آمنت بالحرف ..إما ميتًا عَدَمًا
آمنت بالحرف نارًا ..لا يضير إذا
كنت رمادًا أو كان طاغيتي!
فإن سقطت ..وكفي رافع علمي.
سيكتب الناس فوق القبر : لم يَمُتِ

أنه يعلن رفضه الحاد للتلاشي ،والموت، ويقاوم استلاب قدرته ، فيجعل شعره نارًا، بإمكانها أن تواجه سقوطه ،وصوت درويش العالي يفضح مرارة الاستلاب الصهيوني ويوضح "كيف استطاع درويش أن يهضم التطورات الشكلية والخيارات التعبيرية لتجارب شعراء عصره وأن يعيد صياغتها بما يخدم قصيدته وطموحه لتعبر عن مأساته الوطنية والمقاومة الفلسطينية "[14].

ويسعى درويش للخلود الشعري لنصه سواء كان مقاومًا بنبرته العالية أو ساكنًا في تعبيراته الإنسانية المتأخرة . ولكونه يكتب عن وعي فستتضح في هذا النص رؤيته حول قدرة الفن على المقاومة ضد الموت /الاستلاب ، فهو يصنع من حروفه سيفًا ، ويجعلها نارًا تُشن على عدوه ليس فقط لتصيبه ، ولكن لتعلي من قيمة الفن كعنصر أساسي في مواجهة الاستلاب , هذا ما جعله يعلن في نص (الجدارية) هزيمة الموت كمستلِب ،وكذلك يعلي من نسق التحرر في مقابل أشكال الاستلاب ، من حب ، وموت ، وبحر، وريح، فهو يرى في كل قوة استلابًا لقدرته على الحياة. " فرؤية درويش إذن هي رؤية الفكر اليساري للجماهير الكادحة ، وهي نابعة من إيمانهم بأنَّ هذه الجماهير هي التي تصنع الثورة وتغير الواقع ، فشعره في هذه المرحلة يؤمن إيمانًا مطلقًا بالطبقة

([13]) ديوان. أوراق الزيتون ،ص9.
([14]) مجلة الإمارات الثقافية ،مقال محمود درويش وتحولاته الشعرية،فخري صالح ، العدد16،أغسطس 2013م،ص 45.

العاملة"[15]. وإن كان قد أضاع عمره كله مقاومًا بالشعر،فإنه يدرك بعد ما اشتد وقع الاستلاب إنه قد أضل شعبه ونفسه على السواء ، وأن الأغنية لا جدوى لها في مقاومة الاستلاب، يقول درويش[16]:

أسأت إليك يا شعبي ،أسأت كما أساء الحبُّ بي

وأصبت طفلًا بالأغاني حين قدست المعاني وحدها.

يشير هذا النص إلى مرحلة متأخرة في رحلة درويش النضالية ، حيث تغيرت إيديولوجيته الدفاعية في المقاومة ،وتحولت رؤيته النضالية من الثورة الجارفة والصور الجاهزة المتأثرة بمعجمه الاشتراكي ، ونظرته في المقاومة النارية ، والثورية التي جعلته يقدس المعاني ويُسرِب عبر قصائده هذه الروح الثورية الاشتراكية التي سرعان ما تبدلت في أول زيارة لدرويش لمدينة موسكو حيث تغيرت نظرته لها وتحولها من مدينة مقدسة تحمل شعارات دفاعية وثورية للشعوب المقهورة المسلوبة لمدينة عادية فارغة من تلك الحمولة الزائفة " فقدت الفكرة المثالية ، لكنني لم أفقد ثقتي بالماركسية أو الشيوعية كان هناك تناقض كبير بين تصورنا أو ما يقوله الإعلام السوفياتي عن موسكو ، والواقع الذي يعيشه الناس مملوء بالحرمان ، والفقر ، والخوف ، هذا ما حوَّل موسكو من مثال إلى مدينة عادية"[17].هذا التحول هو ما جعل درويش ينفلت من أثر التراكيب المحفوظة والصور الجاهزة والمباشرة في بث روح المقاومة ، وصراعه مع الاستلاب ، ومحاولة الترسيخ لنسق التحرر في صراعه مع نسق الاستلاب "لكن الطبيعة المباشرة ، والصور الجاهزة والموضوعات المتكررة والنبرة العالية لشعر المقاومة لم تمكث هذه الصورة في شعر درويش ذاك الطموح إلى كتابة قصيدة منفلته من أسر الجاهز،والمباشر،والنبرة العالية "[18] يقول درويش في بطاقة هوية: [19]

سجل أنا عربي

سُلبت كروم أجدادي

([15]) تحولات الرؤيا في شعر محمود درويش ، أنور محمد الطورة ،إشراف سامح عبد العزيز الدَّواشدة،
جامعة مؤته، 2016م، ص 27.

([16]) ديوان محمود دروش، ،ديوان هي أغنية هي أغنية ،ص312.

([17]) ولدت على دفعات ، عبده وازن، مجلة الكرمل عدد 2009م ص 57.

([18]) محمود درويش وتحولاته الشعرية، فخري صالح ص 45.

([19]) أوراق الزيتون ص74

وأرض كنت أفلحها

أنا وجميع أولادي

ولم تترك لنا ..ولكل أحفادي

سوى هذه الصخور

فهل ستأخذها حكومتكم ..كما قيل؟!

لقد تجلت هذه النبرة العالية لنسق التحرر في هذا النص الذي يُعد وثيقة إنسانية يُسطر فيها انتماءه الشديد للقضية الوطنية ،ويؤكد على التمسك بعروبتهم ،وأنَّ هويتهم لن تتبدل وتتحول مهما فعل المغتصب / المستلِب . فهذه القصيدة ربما كانت الرسالة التي أراد درويش أن يبعثها لعدوه، عبر ديوان أوراق الزيتون ، فبعد أن رصد مجموعة من الاستلابات ، ووضح كيف هزمهم العدو وسرق منهم الأخضر واليابس /المكان، يأتي في هذه القصيدة ليصرخ أن هويته عربية، وأنه رافض استلاب خصوصياتهم ، وإن كان لهذا واقعة حقيقية مفادها:أن درويش عندما ذهب ليستخرج بطاقة هوية كتب له الموظف في خانة الجنسية يهودي إسرائيلي فرفض درويش أن يستخرجها.

وعلى الرغم من الشهرة التي نالتها هذه القصيدة ،إلا أن درويش يرفض في مراحل متقدمة من مشواره الشعري أن يُعرف بها ،أو يختارها لتدل عليه وتمثله، فهو يرى أن لكل مرحلة متطلباتها." هذا النوع من الشعر كتبته تلبية للنداءات الداخلية والخارجية ، كان سؤال الهوية هو السؤال المُلح في شبابي الشعري أو صباي، وهو مازال مطروحًا حتى الآن ، ولكن في طرق مختلفة وفي أشكال تعبير مختلفة .كانت ظروف الحياة هناك تقتضى ربما مثل هذه المخاطبة المباشرة"[20] ويؤكد النص على استلاب الأرض /المكان، ورفض درويش استلاب الهوية ويُظهر تطورًا فنيًا في تعبيرات درويش وصوغه الشعري ، ويقطع حيرة درويش وتردده في حقيقة انتمائه ، فهو يتخلص من سؤاله الملح من أنا"هل أنا مواطن إسرائيلي بمحض اختياري ،أم أنا مواطن عربي فلسطيني... وإذا كنت كذلك ففي أي صف أقف.إن قلوبنا واضحة الدقات ، ولكني مطالب بترجمة مشاعري إلى كلمات "[21]. فهو مطالب ألا يكون على الحياد وأن يميل لمعسكر الوطن ويتخلى عن نزعته الإنسانية تجاه اليهود العزل ،أقصد بذلك أن (درويش) كان له موقف حيادي تجاه اليهود

([20]) ولدت على دفعات ، عبده وازن ،ص 6.

([21]) مجلة أخبار الأدب العدد 1047،18 أغسطس 2013م ،ملف محمود درويش نصوص اللحظة ،محمد شعير.ص168.

بوصفهم أصحاب رسالة سماوية ،هذا بالإضافة إلى أنَّ أول حب له كان من فتاة يهودية كتب لها أكثر من قصيدة أشهرها(ريتا والبندقية) وتعلقه بالحزب السياسي الإسرائيلي راكاح ،كل ذلك جعله محايدًا تجاه اليهود العزل. ولكن كل ذلك لم يبعده عن قضية وطنه ، فدرويش يرثي أرضه السليبة قائلًا [22]:

عسل شفاهك

كأس خمور..

للآخرين..

الدوح مروحة ،وحرش السنديان

مشط صغير

للآخرين

وأنا على أسوارك السوداء ساهد

عطش الرمال أنا .. وأعصاب المواقد

من يُوصد الأبواب دوني؟

أي طاغية ومارد!!

سأحب شهدك..

رغم أن الشهد يُسكب في كؤوس الآخرين.

فيقاوم درويش الاستلاب بالحب ، فعلى الرغم من ظاهر النص الذي يوحي باتهام درويش الأرض بأنها متآمرة مع المستلب ضدهم /الفلسطينيين ،إلا أنه يقاوم هذا السلب بالحب ، فتمسكه بأرضه وعدم قناعته بموتها، وضياعها هو بارقة الأمل في استمرار المقاومة ، يقول درويش في كتابه في حضرة الغياب:"إن كانوا قد أخرجوك من الحقل أما ظلك فلم يَتْبَعُك ولم يَخْدَعُك ، فقد تَسْتَمرُ هناك وتتحجَّر ، ثم تَخْضرُ كنَبتة سُمسُم خضراء في النهار ، زرقاء في الليل . ثم نما وسما كصفصافة في النهار خضراء"[23]. فبقاء الأمل أخضر، هو مقاومة لفعل المستلب ، ورغبته في محو الحلم بالنجاة من أسر السلاسل . يقول درويش[24]:

وضعوا على فمه السلاسل

([22]) ديوان محمود درويش ، أوراق الزيتون ،ص 10،11.

([23]) في حضرة الغياب ،رياض الريس،2006م ص 14.

([24]) ديوان أوراق الزيتون، ص12.

ربطوا يديه بصخرة الموتى،

وقالوا: أنت قاتل!

أخذوا طعامه ، والملابس،والبيارق

ورموه في زنزانة الموتى

وقالوا :أنت سارق

طردوه ، من كل المرافيء

أخذوا حبيبته الصغيرة،

ثم قالوا أنت لاجيء

فهذا هو النسق المعتاد عليه من المستلِب/السارق ، فهو عادة ما يلصق أفعاله الظالمة بالمستلَب فالأخير هو المسلوب كرامته ، وحريته ، وأرضه ، ورغم ذلك يقال عنه إنه قاتل ، فالمقاومة عادة يكون نهايتها قيود السلاسل .

يكشف هذا النص خدعة وافتراء الإسرائيليين وزعمهم أن الأرض الفلسطينية هي أرض الوعد وأرض المغفرة لليهود ، وهي هدية الرب لهم ، وذلك كما ورد في التوراة"في ذلك اليوم قطع الرّب مع أبرام ميثاق قائلًا:"لنَسِلكَ أعطي هذه الأرض ،من نهر مصر إلى النهر الكبير، نهر الفرات والأمورين، والكنعانين"[25] .

ولكن العجيب في الأمر أن الإسرائيليين اتهموا الفلسطينيين بسرقة الأرض وأنهم الفلسطينين هم اللاجئون ، وذلك على الرغم من يقين الإسرائيليين من كذب مزاعمهم من كون فلسطين وطنًا لليهود ،وبعثًا لحضارتهم. يقول درويش "[26] :

خبئ عن أذني هذي الخرافات الرتيبة

أنا أدرى منك بالإنسان...بالأرض الغريبة

لم أبع مهري... ولا رايات مأساتي الخصيبة

ولأني أحمل الصخر وراء الحب..

والشمس الغريبة

([25]) الكتاب المقدس ، دار الكتاب المقدس في مصر الإصدار الرابع ، الطبعة الثامنة 2012م ،سفر
التكوين 18/15.ص11.

([26]) ديوان أوراق الزيتون ص50

ينفي درويش هذا الزيف التاريخي المزعوم ،من قِبَل العدو الصهيوني بأحقية اليهود بالأرض الفلسطينية، وكذلك ينفي أكذوبة الصهاينة بشأن بيع الفلسطينيين أرضهم لليهود، ونجد أن هذا الأمر معروف لدى الجميع يقول روجيه غارودي في كتابه:"فإن كل ذلك يرجع إلى أن تاريخ فلسطين كان دائمًا عرضة للزيف والتزوير من جراء التعليلات الدينية والسياسية من قبل الباحثين"[27]. يقول درويش بشأن هذه الرغبة من المستلِب في محو ذاكرة المكان[28]:

عالم الآثار مشغول بتحليل للحجارة
أنه يبحث عن عينيه في ردم الأساطير
لكي يثبت أني
عابر في الدرب لا عينين لي
لا حرف في سفر الحضارة
وأنا أزرع أشجاري على مهلي،
وعن حبي أغني

فحالة المحو هذه تبرهن رغبة المستلِب الصهيوني في نزع هوية المكان الفلسطيني وتاريخه ، وذلك لأنه لا مكان بلا ذاكرة وجذور له في ركب التاريخ ، وهذا يعني عدم أحقية الفلسطينيين في الأرض، فالكاتب غبريل يفسر كيف استطاع الصهيوني محو الذاكرة"فالموظفون الإسرائليون يعون منذ البداية أهمية الذاكرة وضرورة محوها وكبح كل ما تم فعله. لبناء الدولة كان ضروريًا لمحو الذاكرة بين الفلسطينيين[29] . والذي يفهم من ذلك هو رغبة اليهود في استيطان أرض فلسطين، بحجة أن تكون لهم الأرض التي بلا شعب ، لشعب بلا وطن ،وهذا ضمن أساطيرهم المزعومة لامتلاك الأرض ،"في حين أن البحوث التاريخية التي أجريت على الروايات الخاصة بخروج اليهود من مصر وغزو كنعان ما هي إلا قصص خيالية ، تستند إلى الوعد الأبوي الذي يهدف إلى توطين قبيلة من الرعاة لتوفير الاستقرار لهم"[30] .ويقول درويش في ذلك [31]:

([27]) فلسطين أرض الرسالات السماوية ، روجية غارودي ،دار طلاس للدراسات دمشق 1991م،ص 33

([28]) ديوان عاشق من فلسطين ، ص351.

([29]) حالات المحو، غبريل يتربرغ، مجلة الكرمل خريف 2001م، العدد 69.

([30]) الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية ،روجيه جارودي ،ترجمة محمد هشام ،دار الشروق القاهرة

أيها الوطن المتكرر في الأغاني والمذابح ،
دُلني على مصدر الموت
أهو الخنجر ..أم الأكذوبة
لكي أذكر أن لي سقفًا مفقودًا
ينبغي أن أجلس في العراء
ولكي لا أنسى نسيم بلادي النقي
أريد أن أرسم شكلك
أيتها المبعثرة في الملفات والمفاجآت

يتساءل درويش كيف ضاعت الأرض هل بالخنجر والقوة أم بالأكذوبة والأساطير الخرافية ؟ والإجابة واضحة تمامًا له وللفلسطنيين وهي "أن ثلاث أساطير تأسيسية لدولة صهيون تتلخص في نفي المنفى ، والعودة للتاريخ ، والعودة إلى أرض إسرائيل"[32] ، فالحياة المؤقتة التي عاشها اليهود في الشتات ،والحلم بالوطن والاستقرار، هو ما أصبح الفلسطنيون حالمين به ، بعد وقوع الاستلاب عليهم .

فيتمنى درويش أن يلملم فتات أرضه المبعثرة ، ولكن كيف له ذلك وبأي حق يقاوم وقد حوله عدوه إلى سارق ومزور كما في المثل الشعبي الفلسطيني:" في ملكي وبيعركني[33] "لذلك تمنى درويش أن تصير أشعاره خنجرًا لكي تعيد بلاده السليبة حيث يقول[34]:

لوكانت هذي الأشعار
إزميلا في قبضة كادح
قنبلة في كف مكافح
أحد الشعراء يقول:
لو سَرَت أشعاري خلاني
وأغاظت أعدائي

ط4، 2002م.
([31]) محمود درويش ،ديوان احبك أو لا أحبك ص 375
([32]) حالات المحو غبريل ص 187
([33]) ملامح الشخصية الفلسطينية في أمثالها الشعبية ،سليم عارفات ،الهيئية العامة للكتاب القاهرة 1990م،ص 261.
([34]) ديوان أوراق الزيتون البكاء،ص55،54.

فأنا شاعر..

وأنا ..سأقول

فهو يريد لتلك الأشعار أن تغير مجرى الأحداث ،أن تصنع قنبلة تعادل بارود المستلِب فإن استطاع الشاعر أن يفعل ذلك ويغيظ ويقاوم عدوه ، فيكون شاعرًا بمقدروه أن يحول الكلمة لنسق ثقافي يصدره لشعبه فيحيا وينجو به. ولكن كيف يستطيع الفلسطيني أن يقاوم وكيف يعيد الأرض وقد" اتخذ الإسرائيليون أساليب شتى وتحت عناوين مختلفة منها الدراسات والحفريات الأركيولوجية بتأثير ديني مستوحى من التراث اليهودي, وكان على رأس هولاء اللاهوتي جورج آدم سميث[35] "كل ذلك من أجل السيطرة واستلاب الأرض/فلسطين فكيف تتمكن تلك الأشعار أن تواجه ذلك الطوفان القاسي.

فدرويش على وعي ومعرفة بتاريخ احتلال فلسطين ، منذ الغزو الكنعاني والإسرائيلي للكنعانين مرورًا بالغزو الآشوري والفارسي ، والفتح الإسلامي، وما تلاه من احتلال السلاجقة والعثمانيين ثم العودة للسلب الصهيوني للأرض الفلسطينية، والواضح من أشعار درويش أنه غير غافل بكل هذا التاريخ المُحزن من سلسلة السلب . يقول درويش[36]:

تموت قيود على قدميها

لتأتي قيود جديدة

متى نشرب الكأس نحبك

حتى ولو في قصيدة

فرعون مات

فهذه الأرض كُتِبَ عليها توالي الاستلابات والقيود، فلم يكن الوعد الأبوي فقط هو اللعنة الملصقة بأرض فلسطين ، ولكن وعد بلفور الذي جلب اليهود مرة ثانية لفلسطين حيث نجد أمة تعد أمة أخرى بأرض أمة ثالثة .ومن هنا "بدأ الصراع بين العرب والإسرائيلين من حيث كان الصراع بين حركتين قوميتين الحركة القومية الفلسطينية والحركة القومية الصهيونية [37] " .وقد نشأت حركة صهيونية تعرف كيف تحقق ما تصبو إليه من مطامع ومشاريع استيطانية، لذلك "دعت إلى تهويد الأرض حيث تشكل الدعوة

([35]) ملامح الشخصية الفلسطينية ص8.

([36]) ديوان محمود درويش عاشق من فلسطين ، ص155.

([37]) إسرائيل وفلسطين إعادة تقييم وتنقيح وتنفيد ص48.

لاحتلال الأرض أحد الأسس التي استند إليها الاستيطان الصهيوني في فلسطين ، فقد تأسست شركة صهيونية لامتلاك الأرض لتوطين اليهود بها"[38] ولكن السؤال هل ارتضى الفلسطينيون ذلك ؟هل مات الشعر المقاوم للاستيطان؟ نجد درويش يصرخ قائلًا [39]:

وكل يتيمة في الأرض

إذا نادت نناصرها

سنخرج من معسكرنا

ومنفانا

سنخرج من مخابينا

ويشتمنا أعادينا:

"هلا ..همج هم ..عرب"

نعم عربُ

ولا نخجل

ونعرف كيف نمسك قبضة المنجل

وكيف يقاوم الأعزل

ونعرف كيف نبني المصنع العصريَّ.

ومستشفى

ومدرسة

وقنبلة

وصاروخًا

ونكتب أجمل الأشعار

فدرويش ينفي كون العرب همجًا ، وغير متحضرين ،كما يزعم الإسرائيليون ،ويقاوم فكرة التخلف التي يحاول اليهود إلصاقها بالعرب الفلسطينين ، في شعر المقاومة كما يفهمه درويش" تعبير عن رفض الأمر الواقع والظلم والسجن وكل ما هو معادي للإنسانية [40].هذا هو الفكر الاستيطاني الذي يبرهن أفعاله من تجريد شعب واستلاب

([38])الأساس الجغرافي للاستيطان الصهيوني في الضفة الغربية ،بحث ماجستير ،سمير أحمد معروف

الجامعة الأردنية 1985م إشراف منى عبد القادر صالح.ص 55.

([39]) ديوان محمود درويش عاشق من فلسطين ، ص 145-144.

([40]) محمود درويش مقالات وحوارات جمعها محمد خليل ،دار توبقال ص 234.

أرضه بحجة منح هذا الشعب التحضر والرقي ، يقول درويش:"حيث يحاولون في إسرائيل تجريد الشعب الفلسطيني من قدراته الإبداعية لكي يقولوا إنهم جاءوا إلى أرض شعبها غير متحضر وغير متمدن ،إنهم يحملون رسالة كولونيالية" [41].

يرى درويش أنهم فشلوا في عرض القضية الفلسطينية وذلك" ؛لأنَّ الصهاينة كانوا أكثر فاعلية من خصومهم في تحقيق النجاح للجانب الخاص بهم في القضية، فمن أجل تعويض الضعف العسكري لحركتهم ، قام الصهاينة الأوائل باستغلال المواهب اليهودية التقليدية في الدفاع، أما القومية الفلسطينية فكانت واحدة من أكبر قصص الفشل ،ولكن كان لديهم محامون فاشلون"[42] فهذا الفشل إنما هو نابع من كونهم لا يجيدون الثورة الحقيقية ولا بإمكانهم فعل ذلك والمدافعون عنهم متورطون في إفساد القضية لتحقيق مصالح فردية ومطامع تقلل من الحس القومي للقضية فتخاذل العرب عن مناصرة فلسطين أدى في النهاية لتراجع نسق التحرر في مقابل نسق الاستلاب . يقول درويش في ذلك: [43]

أنا في حالة الاحتضار الطويلة
سيد الحزن
والدمع من كل عاشقة عربية
وتكاثر حولي المغنون والخطباء
وعلى جثتي ينبت الشعر والزعماء
وكل سماسرة اللغة الوطنية
صفقوا
صفقوا
صفقوا
ولتعش حالة الاحتضار الطويلة.

فدرويش في هذا النص يعلن استلاب وخيانة القائمين على عرض القضية الفلسطينية ،وتخاذلهم عن وطنهم وأن صنيعهم هذا يزيد حالة الحصار/الاستلاب ،حيث يرفض درويش منذ البدء المقاومة المسلحة والعنف ضد هؤلاء المستلبين ؛لأنه يرى بذلك

([41]) ولدت على دفعات ،عبده وازن ،ص 48.
([42]) إسرائيل وفلسطين إعادة تقييم وتنقيح آفي شليم ،ص 72-73.
([43]) ديوان أحبك أو لا أحبك، ص 391.

ضعفًا لقضيتهم ، فالمقاومة واجب وطني ، ولكن يتساءل درويش بقوله":هل تعلمون لماذا نحن مقصرون في عرض قضيتنا على الملإ؟لأننا نؤمن بأننا أصحاب حق ، ما يجعلنا نفرض في شغل أنفسنا بإستراتيجية دفاعية ،هذا ما يفسح المجال أمام من يعتدي على الحق ؛لأنه يجد نفسه في موقف يستلزم حشد مايلزم من المبررات تثبت ما هو ليس أصلاً حقًا له"[44].

فنص درويش يقاوم مقاومة ثقافية، فكرة الاستلاب الواقع على الوطن ،ويرفض المقاومة العنيفة ، فهو شاعر مهمته تصدير الجمال الفني ليقاوم به الواقع المرير، يقول درويش[45]:

غنيتُ كي أزن المدى المهدور
في وجع الحمامة،
لا لأشرح ما يقول الله للإنسان ،
لست أنا النبي لأدّعي وحيا
وأعلن أن هاويتي صعود،

قد طرأ على نص درويش تطور بالغ الأهمية ،خاصة في مراحل متقدمة من مشواره الشعري ،ولاسيما نص الجدارية ،حيث بدأ يصف لحظة الماضي المقاوم ولكن بطريقة مغايرة ،أي عندما دخلت الحداثة إلى شعره، أصبح يكتب الوجع ، ويصف واقع الاستلاب عليهم ، فهذا النص يوضح أنه يقاوم شعريًا فقط يعالج الوجع ويعترف أنه لم يكن يملك معجزة الأنبياء لينقذ أرضه من الاستلاب. ويلاحظ أن ديوان عاشق من فلسطين وديوان أوراق الزيتون بدأت فيهما بذور تطور تجربة درويش الطامحة إلى "الانفلات من أسر الشخصية القالبية لشعر المقاومة وذلك عن طريق توليد الصور الشعرية المركبة والغريبة التي أصبحت من العناصر الأساسية في تجربة الشاعر"[46] فصوت الشعر أقوى من البارود على العدو، وذلك لأن الشاعر يفضح إيديولوجية المستلِب وتضليله الرأي العام، وهو أكثر فهمًا لغرض الاحتلال الصهيوني ،وأنه ما هو إلا استلاب لوطن بشعبه وتاريخه وحضارته ،ويلمح ذلك عند درويش في أكثر من موقع من شعره كما في قوله[47]:

([44]) مقال لاعب النرد سيرة تتحدى السرد، محمد شاهين ،مجلة العربي العدد20013/650م.
([45]) الجدارية ص 454.
([46]) محمود درويش وتحولاته الشعرية ،فخري صالح ،مجلة الإمارات الثقافية عدد 16، آب 2013م.ص 45.
([47]) ديوان ديوان آخر اليل ، ص242.

قال :إن العيب في المرآة

فليخلد إلى الصمت مغنيكم وعرشي

سوف يمتد من النيل إلى نهر الفرات!

اسجنوا هذى القصيدة

غرفة التوقيف خير من نشيد..وجريدة

أخبروا السلطان ،أن الريح لا تجرحها ضربة سيف

وغيوم الصيف لا تسقي

على جدرانه أعشاب صيف.

يشير النص إلى الوعد الأبوي لليهود بتملك كل الأراضي التي يدخلونها ، ويوضح كيف يخاف الأعداء من صوت الشاعر ويتمنون صمته وموت أشعاره ، ولكن درويش يقاوم على الرغم من كل شيء فالريح أقوى من السلطان ، وغضبة شعب يتألم من وجع السلب ،أصعب من ضربة السيف ، وغرفة التوقيف.يقول درويش أيضًا في هذا المعنى [48]:

على هذه الأرض ما يستحق الحياة:

تردد إبريل ، رائحة الخبز في الفجر

آراء امرأة في الرجال ،كتابات أسخيليوس ،أول الحب

عشب على حجر ،أمهات تقفن على خيط ناي،

هتافات شعب لمن يصعدون إلى حتفهم باسمين

وخوف الطغاة من الأغنيات

فخوف الغزاة من الذكريات ،وخوف الطغاة من الأغنيات – يعزز جدوى المقاومة بهذه الكلمات الشعرية ــ، واستمرار الأمل في البقاء على الرغم من أن استلابهم كان استلابًا كليًا، وتفرقة درويش بين الغزاة والطغاة نابع من كون الغازي المحتل هو الذي يخشى البحث في ذكريات المكان ، ويريد محوها ،أما الطاغية المتمثل في السلطان الجائر هو الذي يخشى من الأغنيات التي بمقدورها أن تُحيي هذه الذكرى ، وتحفظ الذاكرة

([48]) ديوان محمود درويش، ورد أقل ،،ص326.

لأجيال قادمة لتُنير بصيرتها وتؤكد لها أحقيتها في هذه الأرض المستلبة . يقول درويش في ذلك[49]:

علقوني على جدائل نخله
واشنقوني ..فلن أخون النخلة
هذه الأرض لي.. وكنت قديما
أحلب النوق راضيا وموله
وطني ليس حزمة من حكايا
ليس ذكرى وليس حقل أهله
وطني ليس قصة أو نشيد
وطني غضبة الغريب على الحزن
وطفل يريد عيداً وقبلة
ورياح ضاقت بحجرة سجن
وعجوز يبكي بنيه..وحقوله
هذه الأرض جلد عظمي
وقلبي
فوق أعشابها يطير كنحلة

فرفض الخيانة في المقاومة، هو شعار الإنسان الفلسطيني الحر ، الرافض للخضوع والاستسلام ، فالوطن الفلسطيني ليس مجرد حكاية أو أساطير أو خرافات مزيفة ،أو قصة تُنحت من الحفريات ، فالفلسطيني ليس بحاجة إلى إثبات نسبته للأرض ، فهو الابن الشرعي ، ومقاومته ستدخل في الصراع على ذاكرة المكان بين طرفين أحدهما يُزَور ليثبت أحقيته بالمكان وآخر لا يرى حاجة في إثبات ملكيته للمكان/الأرض وهذا ما ورد في نص عابرون بين الكلمات العابرة حيث يقول[50]:

أيها المارون بين الكلمات العابرة
احملوا أسماءكم وانصرفوا
وخذوا ما شئتم من زرقة البحر ورمل الذاكرة
وخذوا ما شئتم من صور ،كي تعرفوا

([49]) ديوان ورد أقل, عن الوطن ص 231–232.
([50]) ديوان محمود درويش عابرون في كلام عابر ،دار توبقال ص2.

أنكم لن تعرفوا
كيف يبني حجر من أرضنا سقف السماء
أيها المارون بين الكلمات العابرة
منكم السيف ومنا دمنا
فلنا في أرضنا ما نعمل
ولنا قمح نربيه ونسقيه ندى أجسادنا
ولنا ماليس يرضيكم هنا
حجر..أو خجل
فخذوا الماضي وأعيدوا الهيكل العظمي للهدد
كدسوا أوهامكم في حفرة مهجورة وانصرفوا

يستحضر درويش في هذا النص كل حيل الإسرائيليين في استلاب الأراضي الفلسطينية ، ورغبتهم في محو ذاكرة المكان الأصلي /الفلسطيني ،وإبدال الذاكرة الإسرائيلية بدلًا منها، ويؤكد أن الماضي والحاضر والمستقبل لهم/ أي(الفلسطينيين)،مهما حاول المستلب/الصهيوني طمس هذه الحقيقة، ويرى درويش أن الشاعر الفلسطيني والإنسان الفلسطيني لا يحتاج أن يبرهن على ملكيته وأحقيته بالمكان .يذكر درويش هذا في حوار له فيقول:"أن الشاعر الفلسطيني لم يشعر يومًا بأنه محتاج إلى تقديم براهين على حقه بالمكان ، وعلاقته بالأرض تلقائية وعفوية ولا تحتاج إلى أيديولوجيا أو تبرير.اما الشاعر الإسرائيلي الذي يعرف كيف تم مشروعه وماذا كان قبل إسرائيل ،والذي يعرف أيضا أن هذا المكان له اسم آخر، يبدو هذا الشاعر في حاجة إلى شحذ كل طاقته الإبداعية من أجل امتلاك المكان باللغة كجزء مكمل للمشروع الاستيطاني[51] " وهذا ما فعله حقًا الشاعر اليهودي(بلفور حكاك) ،عندما ردَّ على نص درويش(عابرون في كلام عابر)، واتهامه درويشًا بتزوير الحقائق ،حيث يرى بلفور درويش يفتري على الإسرائيليين بعدم أحقيتهم في المكان والتاريخ ، فيصف بلفور حاك (درويش) بأنه هو العابر في ملك اليهود وحضارتهم ، وأن أشعاره لا تستطيع أن تمحو الذاكرة ، وأنها مجرد أشعار كآبة وحزن .[52]

([51]) ولدت على دفعات ،عبده وازن ص 48.
([52]) رسالة إلى محمود درويش للشاعر بلوفر حكاك ، ترجمها نسيم قزاز ، عن موقع إسرائيل بالعربية.

لقد ذكرت الباحثة سلفًا أن الصراع بين اليهود/الإسرائيليين ، والعرب/الفلسطينيين لم يكن صراعًا من أجل الأرض فقط ، ولكن كان صراعًا على الذاكرة ، صراعًا على التاريخ /الهوية ، صراعًا على الوطن والانتماء ، فمن أجل أن يلم اليهود شعثهم ويتخلصوا من عقدة المنفى ،حكموا على شعب آخر كي يحل محلهم في الشتات فهو"لم يكن احتلالًا عسكريًا ، فكل من الطرفين له رواية تدور حول أحقيته بذاكرة المكان ، فالرواية الصهيونية تدورحول حق اليهود في إنشاء دولة يهودية مستقلة على أرض أجدادهم في فلسطين ، ومن ناحية أخرى تدور الرواية العربية حول أن الحركة الصهيونية ليست حركة تحرير قومية لليهود ، ولكنها عدوانية توسيعية ، تقوم على طرد السكان الأصليين من أرضهم" [53].فالشاعر اليهودي بلفور حكاك يتهم الفلسطنيين بقتل اليهود، وبممارسة العدوانية ضدهم وبأنهم مستلِبون أرض الميعاد الإسرائيلية ،ولكن (درويش) يردّ على هذا الافتراء حيث يقول[54]:

إذن
سجل ...برأس الصفحة الأولى
أنا لا أكره الناس
ولا أسطو على أحد
ولكن ...إذا ما جعت
آكل لحم مغتصبي
حذار...حذار من جوعي

أيها العابر بين الشعاب بكلمات قصائد الموت والبغضاء
لست عابر سبيل أنا في هذه الربوع
لست غريبًا في حقول القمح والشعير
يا شاعر ممالك الفناء والهلاك أنت المرسل إليَّ
رسائل قصائدك ، لفائف أسلاك الديناميت نار
مكبوتة في العظام

([53]) إسرائيل وفلسطين إعادة تقييم وتنقيح ،آفي شليم ،ص72.
([54]) ديوان عاشق من فلسطين، ص74.

ومن غضبي.

فالعربي /الفلسطيني يحمل على عاتقه أنساقًا ثقافية تتبلور في الشجاعة والمروءة ، فهو لا يكره الناس ، ولا يسطو على أحدٍ ،ولا يسلب كرامة الآخرين وأرضهم ،ولكنه يأكل لحم مستلبه غيرة منه على أرضه التي تساوي غيرته على عرضه.

يقاوم درويش الاستلاب بكل ما أوتي من شبق الحياة ، فهو يرفض اليأس والخنوع لغرفة التوقيف الحائلة بينهم وبين وطنهم ، فقد مارس العدو الإسرائيلي الاستلاب على الفلسطينيين بشكل أكثر قمعية ووحشية ، وذلك لإسكات الصوت الفلسطيني الحر، يقول درويش : [55]

يا دامي العينين ،والكفين!

إن الليل زائل

لا غرفة التوقيف باقية

ولا زرد السلاسل!

نيرون مات ، ولم تمت روما..

بعينها تقاتلْ !

وحبوب سنبلة تموت

ستملأ الوادي سنابل ..!

يرفض درويش الهزيمة الروحية ،ويبعث في الإنسان الفلسطيني مقاومة ظلمة الليل/الاستلاب ، ويضرب له مثلًا باستمرار روما في مقاومتها رغم موت(نيرون) ، وعلى الرغم من بساطة أسلوبه في النص لكن نسق الاستلاب ظاهر حيث كان صوته وتركيزه على مقاومة الاستلاب . يقول درويش في موضع آخر[56]:

مازال في صحونكم بقية من العسل

ردوا الذباب عن صحونكم

لتحفظوا العسل !

مازال في كرومكم عناقيد من العنب

ردوا بنات آوى

يا حارس الكروم

([55]) ديوان محمود درويش ،أوراق الزيتون ، ص 13.

([56]) ديوان محمود درويش ... أمل ص14.

لينضج العنب..

مازال في بيوتكم حصيرة..وباب

ردوا طريق الريح عن صغاركم

ليرقد الأطفال

مازال في قلوبكم دماء

لا تسفحوها أيها الآباء

فالأمل الذي هو عنوان هذا النص كان عنوان مرحلة كاملة أيضًا ، كان الفلسطينيون يعتقدون أن الأرض التي سُلبت ستعود ، فدرويش يجعل من التمسك بالبيت وتفاصيل هذا البيت الذي يرمز إلى الوطن ، وسيلة لرفض الاستلاب ومقاومته وعلو لنسق التحرر. إذ يقول[57]:

لو من لحمنا نعطيك درعًا!

لكن سهل الريح ،

لا يعطي عبيد زرعًا!

إنا سنقلع بالرموش

الشوك والأحزان قلعًا!

إلام نحمل عارنا وصليبًا

والكون يسعى.

يتصور درويش أن بمقدوره أن ينتزع الاستلاب من جذوره ، فهو يرى في الشاعر القدرة على السيطرة على الواقع بسحر الكلمة ، فقد عاش رافضًا لكل أشكال الاستلابات ، داعيًا إلى المقاومة سواء كانت مقاومة شديدة عنترية تصور الإنسان الفلسطيني بالخارق الذي لا مثيل له ، مقاومة تفتخر بعز العرب وأصالة العنصر الفلسطيني في مقابل العنصر اليهودي.أو كانت مقاومة خافتة لا يوجد فيها سوى الأنين والحسرة وسقوط نفسي. يقول درويش[58]:

اقبض على عنق السنابل

مثلما عانقت خنجرًا

الأرض والفلاح ،والإصرار ،

([57]) ديوان أوراق الزيتون ،ص40.

([58]) المصدر نفسه ، ص 41.

قل لي :كيف تقهر..

هذي الأقانيم الثلاثة

كيف تقهر

فثلاثية النصر –بالنسبة لدرويش – هي أرض ، فلاح ، إصرار، فهو يقاوم فكرة التخلي عن الأرض ، وعدم إعطاء الفرصة للعدو بسلبها في حين أن الواقع المرير جاء بعكس ذلك حيث طُرد الفلسطينيون من أرضهم .ولكن هل سيبقى الأمل معقودًا دائماً؟!الإجابة تكون بالسلب ، فدرويش وهو حالة المقاومة الشعرية تارة ينتشي بالأمل وتارة أخرى ينهزم أمام اليأس ، حيث يقول:

ياويل من تتنفس رئاته الهواء

من رئة مسروقةٍ

يا ويل من شرابه دماء

ومن بنى حديقة ترابها أشلاء

يا ويله من وردها المسموم . -

يقاوم درويش هذا الاستلاب الفاشي بقوة العبارة ،"فدرويش يحتمي من هشاشة الواقع والتاريخ بفضاء القصيدة ليعيد للشعر حكايته بقوة الخيال يواجه كل خسارة بقوة العبارة، فهو لا يريد أن يوصد صلته بأرض الحكاية" [59].وعلى الرغم من الخسارة والقمع والاستلاب الواقع على الشعب الفلسطيني ،إلا أن الشاعر الفلسطيني يواجه مصير كل شعب عربي ، من حيث تحكم السلطة في كلمته ، فهو محروم دائمًا من التحدث خارج السياق الثقافي العربي . يقول درويش[60]:

الشاعر العربي محروم

دم الصحراء يغلي في نشيده

وقوافل النوق العطاش

أبدا تسافر في حدوده

الشاعر العربي محروم

تعود أن يموت بسيف صمته

([59]) محمود درويش وتحولاته الشعرية ،فخري صالح ،ص 53.

([60]) ديوان أوراق الزيتون، ص 48.

فالشاعر العربي محروم من الكلمة ، من رفض استلابه وسرقته ؛لأن موروثه الثقافي يُفرض عليه دائمًا أن يموت بسيف صمته فهو مسكون بصوت المثل العربي الذي يفضل الصمت إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب.وأيضًا بتوجيه الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يكون الكلام خيرًا أو ليكن الصمت وذلك على الرغم من أن الثقافة العربية يقال أنها ثقافة الكلمة ، ولكن لا مكان للرفض والمقاومة فيها ، فالرافض /المقاوم منبوذ ومشرد دائمًا ،وهذا ما جعل الإنسان العربي غير قادر على مقاومة استلابه فهو لا يجيد الحديث وإذا تحدث لم يُفصح. يقول درويش[61]:

يوم كان الإله يجلد عبده
قلت:يا ناس نكفر
فروى لي أبي وطأطأ زنده.
في حوار مع العذاب
كان أيوب يشكر
خالق الدود ...والسحاب!
خلق الجرح لي أنا
وأعني على الندم

فإذا كان الطابع العام المميز لديوان أوراق الزيتون هو التعبير الجديد، والانتقال من مرحلة الحزن والشكوى إلى مرحلة الغضب والتحدي ،والتحام القضية الذاتية بالقضية العامة،وتعبيره عن آلام الشعب الفلسطيني ونقل مشاعرهم تجاه الاستلاب ،وانبعاث رائحة الأرض السليبة ،ونبرة الدفاع الحماسية ، وسط كل هذا الصخب جاء ديوان عاشق من فلسطين مختلفًا عنه تماماً وقد ذكر درويش ذلك بقوله عنه:"صوتي هنا أكثر انخفاضًا وهمسا وشفافية ،تخلصت من شرح تفاصيل الصورة واكتفيت بالإشارة الموحية .وحين أنظر إلى الأشياء لا ألتصق بها فقط ،وإنما أتوغل فيها أو تتوغل فيّ".[62] كان أوراق الزيتون قنبلة غضب في وجه المستلب ،كان ناطقًا بلسان حال الجماعة ،حيث لم يكن درويش قد انفك من أسر الجماعية للفردية .فيقول في آخر هذا الديوان[63]:

([61]) ديوان ،عاشق من فلسطين ، ص 139.
([62]) شيئ عن الوطن ،الجديد العدد المذدوج 1969،ص 232.عن كتاب مقالات وحوارات لمحمود درويش.
([63]) ديوان ، أوراق الزيتون ، ص59.

إنا حملنا الحزن أعوامًا وما طلع الصباح

والحزن نارٌ تخمدُ الأيامُ شهوتها

وتوقظها الرياح

والريح عندك ، كيف تُلْجِمُها ؟

ومالك من سلاح

إلا لقاء الريح والنيران

في وطن مباح

يمثل هذا النص آخر نصوص المقاومة الحماسية بالنبرة العالية ، وصيحة الغضب ،وكل ما سيتلو هذا الديوان أقصد أوراق الزيتون ،سيكون وصفًا لحالة المقاومة في لحظة الماضي ، وسيظهر نسق الاستلاب في ثوب جديد وتشكيل جديد ، يأتي من إحداث درويش تغيرات جمالية لنصه وإبداعه ، حيث حول المجاز الجزئي لصورته الشعرية للمجاز الكلي للصورة المركبة ، التي يعتريها الغموض أحيانا، وتستند إلى خلفيات أسطورية ,ورمزية ، وإيديولوجية . ويشير درويش إلى بدء التغير في ديوانه عاشق من فلسطين حيث يقول[64]:

هذا زمان لا كما يتخيلون

بمشيئة الملاح تجري الريح

والتيار يغلبه السفين

ماذا طبخت لنا؟فإنا عائدون

نهبوا خوابي الزيت ، يا أمي ، أكياس الطحين

إنا عائدون

هذا التغير الذي حدث في شعر درويش هو تخليه عن كل ما ليس شعريًا ، فقد صرح درويش في إحدى مقالاته الأدبية "القصيدة السياسية اليوم لا تعني لي أكثر من خطبة، قد تكون جميلة أو غير جميلة ،إنها تخلو من الشعرية أكثر من القصيدة التي تحرص على أن تنتبه لدورها الإبداعي ودورها الاجتماعي أي على الشاعر أن ينتبه إلى مهمته وليس فقط إلى دوره." [65]

([64]) ديوان محمود درويش ، ص 108

([65]) ولدت على دفعات ،عبده وازن،ص 10.

وعلى الرغم من تخلي درويش عن كل ما هو سياسي، ولحظي في المقاومة للاستلاب ،فإنه يعود في نص قتيل رقم 48 من (ديوان آخر الليل) إلى صنيعه الأول في المقاومة ،وذلك تحت ظروف مذبحة كفر قاسم حيث يقول: .[66]

يا كفر قاسم

من توابيت الضحايا ،سوف يعلو

علم يقول: قفوا! قفوا

واستوقفوا !

لا ،لاتذلوا !

دَيْن العواصف أنت قد سدَّدته،

وانهار ظلٌ

يا كفر قاسم ! لن تنام ..وفيك مقبرة وليل

ووصية الدم تستغيث بأن تقاوم

أن تقاوم

فالقصيدة السياسية هنا المقصود بها أن يتحدث الشاعر على حدث سياسي فردي ،أو مشكلة عارضة ،وهذا المفهوم أصبح أضيق بكثير من تحولات أبعاد القضية عند درويش الذي يصرح قائلًا :"ولكن ما هو الشعري وما هو غير الشعري ؟هذه المسألة أيضًا للسياسية ؟كل إنسان فينا مسكون بهاجس سياسي ، أينما كانت في أي منطقة من العالم أن يقول: أنا نظيف من السياسة فالسياسة شكل من أشكال الصراع ، صراع البقاء وصراع الحياة" [67].

فإذا كان نص الكلمة يعرض الشاعر المحروم من الكلمة، والمكتوب عليه الصمت ،فإن نص مزامير يكتشف فيه نسق الاستلاب وكيف يحول الكلمة إلى موت وانتهاء فالشاعر المحب للمقاومة والقول محكوم عليه بالإعدام فحاله مرتبط بوقع كلماته واستلاب الكلمة منه يعني استلابًا لحريته .يقول درويش[68] :

يوم كانت كلماتي

تربة ..

([66]) ديوان محمود درويش ،آخر الليل ، ص 216.
([67]) ولدت على دفعات ،عبده وازن ،ص 10.
([68])ديوان محمود درويش ،أحبك أو لا أحبك ،المجلد الأول ص 377

كنت صديقًا للسنابل
يوم كانت كلماتي
غضباً
كنت صديقًا للسلاسل
يوم كانت كلماتي
حجرًا
كنت صديقاً للجداول
يوم كانت كلماتي
ثورة
كنت صديقًا للزلازل
يوم كانت كلماتي
حنظلاً
كنت صديق المتفائل
حين صارت كلماتي
عسلاً
غطي الذباب
شفتيَّ!..

فنص مزامير عبارة عن ومضات تحكي مسيرة درويش النضالية والمقاومة ضد الاستلاب الصهيوني ، يرد فيه على اتهامه بالتخلي عن المقاومة ،عندما كتب اليومي،الذي يحمل بعدًا ميتافزيقيا وأسطوريا أكثر من الكلام العادي المباشر المستهلك، ولكن عندما كانت كلماته عسلًا غطى الذباب شفتيه ؛ يقول درويش:"حاول رتيسييوس يكتب اليومي ، لكنّ هذا اليومي الذي يبدو عاديًا يخبيء بعدًا أسطوريًا ما.ولعل القصيدة التي تسمى يومية لدى ريتسيوس ليست قصيدة يومية ، ففي هذا اليومي بعد أسطوري وميتافزيقي". [69] فدرويش يعتز بكونه شاعرًا فلسطينيا ، ولكنه يرفض أن يصنف على أنه

([69]) ولدت على دفعات ،عبده وازن ،ص 11.

شاعر القضية فقط ،فهو يرفض أن يكون مؤرخًا للقضية فدرويش حوَّل القضية من قضية محلية إلى قضية كونية إنسانية عامة.

فلسطين تتبدل وتتحول في إبداع درويش ، ففلسطين الرافضة الاستلاب والمقاومة له في أوراق الزيتون قد أصبحت لا معالم لها ولا لون لها ولا أمس لها في دوواوين لاحقة، وقد سيطر الاستلاب عليها وخيم ونُزع منها كل لحظاتها.يقول درويش[70]:

لا لون لي

لا شكل لي

لا أمس لي

إن الشظايا حاصرتني

فاتَّسعتُ إلى الأمام

والغزاة يمشطون يديك من آثار ظهري

سمَّوك البديل

وبدلوك

كأن أغنية تغير أو تطهَّرُ أو تدمّرُ أو تفجَّرُ

أنا ضد المدينة:

أنا ضد القصيدة

غيَّرت حزن النبي ولم تغير حاجتي للأنبياء

أنا ضد العلاقة

انا ضد البداية:

أن أواصل نهر موسيقى تورخني وتفقدني تفاصيل الهوية

في المرحلة الثانية من شعر درويش أي ما بعد أوراق الزيتون ،وعاشق من فلسطين، تحول الإحساس بالفخر والعزة والقوة –المتصِف بها المقاوم–إلى شعور بالدونية وكأنه تخلي عن المباشرة والنبرة العالية وركونه لتعبير الإنساني جعله يرى أثر الاستلاب الواقع عليهم،وكيف أن العدو المستلِب أقوى منهم ،وكيف حولهم إلى هباء فوق صفحات التاريخ .

([70]) ديوان تلك صورتها وهذا انتحار العاشق ص 585-559-560-566.

وقد لخص عنوان النص ما أراد درويش أن يثبته من تحقق الاستلاب عليهم ، فقد أصبح لا لون ولا شكل له , فقد كل خصوصيته بعد ما غيرت فلسطين أسماءها ، وكذلك فقدت القصيدة مهمتها (المقاومة) , "إن التحول الفني في شعر درويش انعكس على رموزه فمن مرحلة النضال والتحدي والمد القومي والشعور الفلسطيني بالوحدة والمعاناة في غربته ونضاله المنفرد، إلى الذاتية ومخاطبة العقل ،والاتجاه نحو الحكمة[71] " هذا ما عمق شعور درويش بالخيبة والفشل في مواجهة الاستلاب الصهيوني .

جاء ديوان أعراس ليشعل نار المقاومة ، ورفض الاستلاب ، وزرع الأمل في العودة بعد أحداث الانتفاضتين الأولى والثانية ، وتحقيقًا لاستمرار الصراع بين الاستلاب والتحرر حيث جمع درويش في نصوص الديوان بين الحس الحماسي القديم والتشكيل الفني الجديد من صور مركبة ومجازات ،ورموز[72]:

فيأيها القابضون على طرق المستحيل
من البدء حتى الجليل
أعيدوا إليّ الهوية
إن الشعوب ستدخل هذا الكتاب وتأفل شمس أريحا
بدون طقوس
فيا وطن الأنبياء ... تكامل !
ويا وطن الزراعيين ...تكامل
ويا وطن الشهداء... تكامل
خديجة لا تغلقي الباب خلفك
وفي شهر آذار ، في سنة الانتفاضة
لا تذهبي في السحاب
ستمطر هذا النهار
ستمطر هذا النهار رصاصا.

صدم درويش القارئ بعنوان هذا الديوان أعراس فالتسمية جاءت مخالفة للواقع الفلسطيني واللحظة الحاضرة التي هي لحظة المذابح ،ولكنه يجعلها لحظة أعراس وأفراح لا تنتهي ، ففرحة الشهيد بانتفاضته تساوي فرحة الأم بعرس ابنها ، وفي هذا المعنى يقول

([71]) الأثر التوراتي في شعر محمود درويش ،عمر رحيبات ص 32.
([72]) ديوان أعراس ص 643-647.

رجاء النقاش :"وإذا كان محمود درويش في ديوانه "أعراس" قد تغير وتطور ونضج فنيًا بالقياس إلى بدايته ، فقد ظلت في شعره مع ذلك أشياء ثابتة محددة أهمها أنه في أعماقه ليس متشائمًا ، و هذا ما يتضح للقارئ عند قراءته قصائد الديوان سيدهش من هذا الاسم على الرغم من الحديث عن الذين قتلوا في تل الزعتر"[73] فهو عرس لانتصار التحرر ونهوض أبناء الشعب الفلسطيني في وجه الظالم المستلِب يقول درويش[74]:

في شهر آذار ، في سنة الانتفاضة ، قالت لنا الأرض

أسرارها الدموية

1

والأرض أنت

خديجة لا تغلقي االباب

لا تدخلي في الغياب

سنطردهم من إناء الزهور وحبل الغسيل

سنطردهم من هواء الجليل

أرجوك –سيدتي الأرض –أن تسكنيني وأن يسكنني

صهيلك.

أرجوك أن تدفنيني مع الفتيات الصغيرات بين البنفسج

والبندقية

فقصيدة الأرض وما تمثله من قمة المأساة الفلسطينية تعرض الاستلاب ومقاومته في آن واحد ،فالأرض تشكو ظلمة السلب وتغني أمل الانتفاضة فهي في مجملها تشبه قصيدة الأرض الخراب ل ت.س أليوت ،فالنص في مستواه الشكلي مبني على لفظة خديجة ،وما تحمله اللفظة من دلالات لغوية "بمعنى النقصان وعدم الكمال"[75] وتحمل دلالة تراثية حيث خديجة بداية الدعوة المحمدية ، فعلى الدلالة الأولى يكون معنى الانتفاضة يشوبه النقصان والأرض أيضًا ناقصة نتيجة لوقع الاستلاب ، وعلى الدلالة الثانية يكون درويش قد أراد ألا تتوقف المقاومة /الانتفاضة .

([73]) ثلاثون عام مع الشعر والشعراء ، رجاء النقاش ،ص 320-321. دار سعاد الصباح ،الكويت 1992.

([74]) ديوان أعراس ،ص 637-638.

([75]) لسان العرب ، مادة خدج ،ص33.

والدليل على ذلك قوله :خديجة لا تغلقي الباب/لاتدخلي في الغياب .يقول الدكتور صلاح فضل: "وهذه هي قدرة درويش على صياغة اللفتات التعبيرية الخاصة والإشارات المجازية الخارقة ، والقادرة على خلق حالة التوتر وقلق المعنى مع بلورة الرؤية ،كما تتمثل استثارة لحظات الوجد الكفيلة بنقل حالة العدوى إلى المتلقي[76] " .

واستمراراً للمقاومة والانتفاضة والبحث عن شرارة الأمل يأتي ديوان محاولة رقم 7 بنبرة جديدة ،حيث تتبدل فيه الأدوار، فدرويش لم يعد يوجه حديثه للمستلِب بقدر ما يوجه حديثه للأرض السليبة ، ليصف حال الفلسطينيين في محاولة إرجاع الأرض والعودة إليها , فهي/الأرض صعبة المنال ، والفلسطينيون مُحرم عليهم العودة إليها .يقول درويش[77] :

طوبى لشئ لم يصل!
هذا هو العرس الذي لا ينتهي
في ساحة لا تنتهي
في ليلة لا تنتهي
هذا هو العرس الفلسطيني
لا يصل الحبيب إلى الحبيب
إلاشهيدًا أو شريدًا
دمهم أمامي
ووحدهم لا يرجعون
كأنه وطني
أمامي ..لا أراه

هذا هو القدر الذي كُتب عليهم ، فمحاولة للوصول إلي هذه الأرض لا ينتج عنها اللقاء وإنما ينتج عنها الشهادة أو التيه ، فمحاولة الوصول بُعد وفراق، لذلك كان عنوان القصيدة "طوبى لشيء لم يصل" فإنه يُهنيء من لم يحاول الوصول /العودة ،لأنه تحاشي النهاية ، ودرويش متناص مع المزمور الثاني والثلاثين لدواد الذي يرى فيه "أنه طوبى للذي غُفر إثمه وسُيرت خطيئته ، طوبى لرجل لا يحسب له الرب خطيئته ، ولا في روحه غش[78] . فقد سُلب الإنسان الفلسطيني الحلم في الوصول /العودة ،وهذا التخيم للاستلاب

([76]) عاشق في حضرة الغياب ،صلاح فضل ،مجلة الهلال سبتمر 2008،ص 20
([77]) ديوان محاولة رقم 7،ص509.
([78]) سفر المزامير (3/23).

وسيطرته على شعور الفلسطينيين جعل الاستلاب نسقًا معيشًا ، كل شيء ينتهي قبل البدء فيه وعلى الرغم من ذلك مازال الأمل معقودًا في المقاومة ، فدرويش يصور محاولة الفلسطنيين الصعود رغم علو السفح / الذي يُعد رمزًا للاستلاب حيث يقول[79]:

السفح أكبر من سواعدهم

ولكن...

حاولوا أن يعبروا

والنجم أقرب من منازلهم

ولكن...

حاولوا أن يفرحوا

والأرض أضيق من تصورهم

ولكن..

حاولوا أن يحملوا

اتسعت دائرة الاستلاب في مفهوم درويش وأصبحت غير مقتصرة على العدو الصهيوني ،ولكن تحولت كل قوى الطبيعة لعنصر مساعد لاستلابهم ، أصبح الجبل ،والبحر ،والنجم،عناصر مستلبة الفلسطيني الذي يرغب في العودة . وعلى الرغم من كل الصعاب لا يستطيع الشاعر أن يتخلى عن قضيته فهو يهمس قائلا"مهما نأيت ستدنو/ومهما قتلت ستحيا /فلا تظن أنك مَيْتٌ هناك /وحيٌ هنا/فلا شييء يثبت هذا وذلك إلا المجاز "[80] .

ولكن الصراع غير متكافئ في شكله ومضمونه ، فحتى المجاز الذي يلوذ به درويش ليتخلص من أسر الواقع – مستلَب من العقيدة اليهودية ،ومع ذلك فإن (درويش) هو الحالم "سموك الحالم من فرط ما ركبت الكلمات من أجنحة لا يشاهدها الكبار ، وتحرشت بالغامض واغتربت"[81].لكن الوجع الحقيقي عندما تجتمع المتناقضات في آن واحد حين تصبح المعرفة للحقيقة تؤدي إلى اليأس المحقق ، لذلك تجاهل درويش هذا الوعي بالنتيجة التي تؤديها المحاولة ، فدرويش كاد أن يصدر في نصوصه نسق الاستلاب ويرسخه في نفس المتلقي ،حيث يتحدث إليه دائما بلغة المستلَب ،ويبث في روح

([79]) ديوان عاشق من فلسطين، ص512.

([80]) في حضرة الغياب ،محمود درويش ص 14.

([81]) في حضرة الغياب ص31.

المتلقي الوجع وهذا يدل على تراجع نفس المقاومة الصريحة التي كان القارئ يفهمها من نص درويش ،حيث يقول[82]:

لماذا نحاول ؟
والكلمات التي لم نقلها
تُشردنا ...
فكل البلاد مرايا
وكل المرايا حجر
لماذا نحاول
هنا قتلوك
هنا قتلوني
هنا كنت شاهد النهر والملحمة
ولا يسأم النهر
لايتكلم
لا ينام
في كل يوم لقاء جثة
في كل يوم لهم أوسمة
كل البضائع شرعية
ماعدا جسدي
ليس لسيفي رأي بأصل الخلاف

يكرر درويش صورة النهر الذي يتحد مع عدوه في استلاب أرواح الشهداء ،وظهر هذا النهر في ثوب الجبار الذي لا يخجل من صنيعه فدائمًا يلصق درويش بالنهر الأفعال السيئة ، فهو يعيب على النهر عدم قدرته على الكلام ، ورفض أفعال المستلِب ، في حين يتساءل ما جدوى المحاولة، وكل ما يفعلونه يشردهم ،فهو مسروق اللسان. وفي ذلك الاعتقاد مخالفة لنسقية النهر في الثقافة العربية حيث يدل على الخير والعطاء.

يجمع درويش بين البعد الأسطوري للمرايا وبين البعد الأسطوري للنهر ،حيث يتخلص الإنسان من ذنوبه ويطهر النفس ويعكس الماضي في المرايا ويبحث عن السمو

([82]) ديوان محاولة رقم 7،كآني أحبك ص 465.

والرفعة ، وكذلك النهر الذي يرمز لتخلص الإنسان من ذنوبه وأيضًا الرحلة التي لا عودة منها على حسب التخيل العربي من حيث هو الذهاب إلى المجهول وسفر إلى الموت ،وبالتالي هو مستلِب لكل محاولة للعودة فأصبحت كل البلاد مرايا وسرابًا وكل سراب هو حجر لا جدوى له.

كرر محمود درويش صورة الجسد غير الشرعي /السفاح ، في قصيدة أمل وقصيدة مديح الظل العالي ، وكأنه قد وسم أحقيتهم في المكان وضياع هويتهم بعدم شرعيتهم ،يقول[83] :

تفتح الموج القديم :ولدت قرب البحر من أم فلسطينية
وأب آرامي .ومن أم فلسطينية وأب مؤابي .ومن أم
فلسطينية وأب أشوري ...ومن أم فلسطينية وأب عروبي
ومن أم ..ومن أم ..على حجر يُقيدو فوقه
كم كنت وحدك يابن أمي
يابن أكثر من أب

تُمثل قصيدة مديح الظل العالي علامة فارقة في مسيرة درويش النضالية من حيث كونها قصيدة تسجيلية سيُجمل فيها درويش حديثه عن الاستلاب وعن التراجع بين الأمل واليأس في المقاومة ، يقول عنها رحيبات:"إن قصيدة مديح الظل العالي تمثل قصة الخروج من مصر وإن معادلها الموضوعي هو الخروج من لبنان , فدرويش يتحدث عن التيه والمشي وحيداً ويورد رموز أيوب وسليمان ,وندم بني إسرائيل /والهيكل المزعوم/والهجرة العربية إلى عقيدة أخرى ،وحديثه مع أشعيا النبي وسقوط القناع عن الأمم". [84] تُعد قصيدة الظل العالي من أكثر النصوص التي عالج فيها درويش تخاذل العرب عن القضية، فدرويش لم يترك شيئا إلا قاله في هذا النص تحدث عن تفشي الاستلاب وتخاذل العرب أمامه ،وضياع الأمل ، يقول[85] :

سقط القناع .
لا أخوة لك يا أخي ،لا أصدقاء
يا صديقي ،لا قلاع

([83]) محمود درويش، مديح الظل العالي ،ص 69.
([84]) الأثر التوراتي في شعر محمود درويش، عمر رحيبات ص 124.
([85]) ديوان ، مديح الظل العالي ص42-26.

لا الماء عندك ،ولا الدواء ولا الدماء ولا الشراع

ولا أحد

إلاك في هذا المدى المفتوح للأعداء والنسيان

فاجعل كل متراس بلدا

لا ..لا أحد

سقط القناع

عَرَبٌ أطاعوا رومهم

عَرب وباعوا روحهم

عرب..وضاعوا

تُعد قصيدة مديح الظل العالي من أصدق وأجمل ما قاله درويش عن المقاومة ، وقد ألقاها في مؤتمر بحضور صديقه ياسر عرفات ، وقد أشعل درويش في كل الحضور نار المقاومة وحماستها ،فهذا النص بكونه نصًا تسجيليًا جاء جامعًا لكل رؤى درويش من حيث تصوره لمفهوم الحداثة الشعرية وجلبه الأسطورة إلى نصه، ومن حيث هي طلقة الطلقات في مسيرة النضال ضد العدو الصهيوني .يقول درويش[86] :

وانتصر في ما يمزق قلبك العاري

قوسًا نلم الأرض من أطرافها..

حرسًا لما ينساه سكان القيامة من معانيك

انتصر

إن الصليب مجالك الحيوي ، مسراك الوحيد من الحصار إلى الحصار

لا شئ يكسرنا

قصيدة مديح الظل العالي التي هي مديح لرمز لبنان الموجود في التوراة "الأرز" المقدس ، فهو ينتقل فيها من رصد الجرح الفلسطيني والمكوث عليه إلى رثاء وطن عربي آخر ، وطن استلبه العدو الإسرائيلي ، فهي قصيدة تسجيلية ؛لأنها تحكي تفاصيل الاستلاب العربي بشكل عام فتتّسع دائرة الرؤية لدى درويش حيث يتحول من شاعر القضية الفلسطينية فحسب إلى شاعر الجرح العربي عامة.

([86]) السابق ص 7

مديح الظل العالي هي استنكار للغياب العربي تجاه القضية ، فدرويش يشعر بمدى الجراح والألم فهو واقف بمفرده /والإنسان الفلسطيني أمام عدوه ،ومن ناحية أخرى تعادل مديح الظل العالي نص جدارية من حيث الشمولية والطول والشكل الملحمي والنزعة الأسطورية ،وهذا يكشف عن نية درويش في تشكيل نص يصبح أسطورة الشعب الفلسطيني وهذا بالطبع مناف للواقع من حيث استلاب النص التوراتي لدرويش .يقول[87]:

وحدي أدافع عن جدار ليس لي
وحدي أدافع عن هواء ليس لي
وحدي على سطح المدينة واقف
أيّوبُ مات ، وماتت العنقاء ، وانصرف الصّحابة.
باسم الفدائي الذي خلق
من جُرحه شفقا
باسم الفدائي الذي يرحل
من وقتكم .. لندائه الأول
الأول الأول
سنُدَمّرُ الهيكل.

فبيروت وما تمثله من قيمة عالية لدى درويش ، ليس فقط لكونها محل إقامته بل كانت هي المنبر الذي يقاوم منه درويش المستلِب الصهيوني ، لذلك ينزعج درويش عندما وصل إليه الفلسطينيون فنازعوا اللبنانين بزعم أن الأرض اللبنانية هي أرضهم –عند تهجير اللاجئين الفلسطينيين من بيروت– وفي ذلك إعادة للتاريخ حيث فعل الفلسطينيون ما فعله الإسرائيليون ،إن شعور اليهود بالغربة والشتات انعكس على الفلسطينيين .

هذا الصوت المتخبط بين الأمل والسقوط بين الأشياء كلها فتكرار جملة لا شيء يكسرنا وما تحمله من عناد ومقاومة وهزيمة لنفسية المستلِب ، فدرويش يشعل نار الحماسة وإعادة الثقة بالنفس وترميم التصور الذاتي للمقاوم الفلسطيني. يقول درويش[88]:

لا شيء يكسرنا
ومن أدمى جبين الله يا ابن الله

([87]) ديوان ،مديح الظل العالي ،ص 17
([88]) ديوان ،مديح الظل العالي ،ص 13-16.

القمح مر في حقول الآخرين
والماء مالح
وعليك أن تحيا وأن تحيا
وأن تعطي مقابل حبة الزيتون جلدك
كسروك ،كم كسروك كي يقفوا على ساقيك عرشا
وتقاسموك وأنكروك وخباؤك
فأنكروك لأنهم لا يعرفون سوى الخطابة والفرار
هم يسرقون الآن جلدك
فاحذر ملامحهم ..

فحصار بيروت محور النص لم يكن حصارًا عسكريًا فقط ولكن كان حصارًا نفسيا لدى درويش ، فقد عبر عن هذا الحصار بشكل مضطرب إذ يهاجم العرب لتخليهم عن القضية ، حيث لايجدون سوى الخطابة والهروب ، فالنص يرصد مأساة ومرارة الاستلاب وتحوله من استلاب للأرض إلى استلاب للذات،" إن (درويش) حين يعول على جرح بيروت إنما يخرج من جوانبه كل ملامح التشتت والتغريب ، ليشكل بها هذا الجرح فتحول بيروت إلى جذر من جذوره ،وهي جماع صور الشتات والرحيل التي احتواها وعي درويش ، وعاشها جرحًا واقعًا." [89].كسروك كي يقفوا على ساقيك عرشا،فالخطاب والرسالة موجهها للعرب المتخاذلين يقول[90]:

قصب هياكلنا
وعروشنا قصب
في كل مئذنة
حاو ،ومغتصب

تخلص الباحثة من مقاومة درويش للاستلاب أنه قد بذل قصارى جهده في محاولة رد كيد الاستلاب الصهيوني كفكرة وليس مقاومة الزحف اليهودي وإنشاء الدولة لأنه احتفظ بشعريته ودوره بوصفه فنانًا وليس مقاتًلا عسكريًا بل كان رافضًا الحل

([89]) تراكمات الغياب الفلسطيني ثلاثية :الطيور الرياح التلاشي في شعر محمود درويش ،كامل الصاوي
مكتبة الزهراء القاهرة 1992م،ص 51

([90]) ديوان محمود درويش ،مديح الظل العالي،ص 44.33.

العسكري في مواجهة اليهود ورد استلابهم . وأنه قد فَهِمَ العلاقة التي تربط الإنسان بالأرض والوطن ، وأن قيمة الإنسان مرهونة بمكانه ،وأن التمسك بالوطن قد خلق صراعًا بين نسقي الاستلاب والتحرر ،وكذلك انتهاء هذا الصراع القائم بين نسقي التحرر والاستلاب بانتصار لنسق الاستلاب، وتراجع لروح المقاومة .